كلنا أحرار ومتساوون

1,07 × 1,07 - 1982

الدولة العصرية خانت الوطن الاصلي

بما أن البحار تدبّر تبادلات غامضة
وأن الارض تنفذ اليها السوائل
يمكن القول أن جميع الناس استحمّوا في نهر "الغانج"
— ج۰ ل۰ بورج —

كتب السيد جيرمانتيس في صحيفة "الفيغارو" ليوم ٣٠ أكتوبر ١٩٦٠، ما يلي : "ان الدولة العصرية قد خانت الوطن"۰

ودون الادعاء باخضاع هذا الحكم الغني بالمعاني والاشارات، لتحليل مستفيض يلم بكل ما يتضمنه، يظهر لي رغم ذلك، أنه يعبر عن الواقع المعاش لهذه الظاهرة القديمة في تكررها، الحاضرة بالمشاكل التي تطرحها وتثيرها : أقصد ظاهرة الهجرة۰

ان التاريخ لا يعطينا أى مثال عن مجتمعات انسانية تكوّنت بشكل عمودى، أى ظهرت في مكان محدد جغرافيا، ككل نهائي جامد۰ على العكس من ذلك، انه يقدم لنا العديد من الامثلة عن شعوب تغيّرت لغتها وديانتها وطريقة كتابتها، العديد من المرات عبر العصور۰

وما نسميه أمما، ما هو في النهاية سوى محصلات تقاطع الهجرات والحروب والتبادلات بين مجموعات بشرية متشتة أصلا، لكنها، وبدافع من دعامة دولة، وجدت نفسها داخل "قالب" وخندق وطني۰ وان اللسنيات والانتروبولوجيا والتاريخ تشهد على هذه الاصول "الخلاصية" للشعوب، اذ أن تاريخ الانسانية هو عبارة عن خلاصة، وليس تجاور بين عوالم مختلفة۰

واذا كانت الامة عبارة عن "كون مصغر" للانسانية، فان الوطن يشكل التربة التي تتسجل وتتجذر فيها الذاكرة، والحديقة السرية للذاكرة الكونية، ورحمها، ومستقبلها۰

ويتجلى هذا بوضوح أكثر بالنسبة للثقافة المتوسطية۰ فهذه البحيرة التي يسميها العرب "البحر الابيض المتوسط"، والتي قال عنها بريمون أنها "تشكل أمة

واحدة" ، قد ربطت شعوبها ، منذ العصور الاولى ، الى نفس المصير ونفس الحركة المزدوجة ، والى الوجهين اللذين يشكلا قطبيها : الثقافة الارمية ـ العربية ، والثقافة اليونانية ـ اللاتينية .

واذا كانت اليوم ، وللاسف ، ضفتها الجنوبية (العربية) "مصنفة رغما عنها ، ضمن المعسكر المسمى بشرق العالم ، في حين أن أختها (اليونانية ـ اللاتينية) مصنفة ضمن المعسكر الغربي لهذا العالم الازدواجي ذى القطبين ، فهل بامكان كل هذا أن يفقدنا الذاكرة ، ويجعلنا في مستوى من اللامسؤولية الى درجة التضحية بأصلنا المشترك في سبيل خلافات ظرفية لم نساهم فيها ؟

كيف لا يتذكر المرء مثلا ، أن كلمة أوروبا تنحدر من اسم الاهة سورية فلسطينية ، وأن الهلال الخصيب كان ملجأ ، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، لشعب مخضرم مكون من يونانيين ومشارقة ، وأن هؤلاء اليونانيين الذين يسمونهم "فلستان" هم الذين أعطوا اسمهم لفلسطين ، وأن الديانة الفنيقية كانت منتشرة جدا في جنوب فرنسا وايطاليا واسبانيا مدة طويلة قبل المسيحية؟

واذا كان شعار "الغرب المسيحي" يوضع اليوم ببهرجة في تضاد مع "الشرق المسلم" ، بشكل يعفي الطرفين من أى تأمل تاريخي ، فهل سننتهي الى نسيان الجذور الانسانية والثقافية للمسيحية التي لا زالت حية موجودة في حياة العرب المسيحيين الذين يعيشون في بيت لحم ، ودمشق ، وبيروت ، والناصرة ، والقاهرة ، أو في المنفى ؟

ان بعض الرسوم التي اكتشفها باحثو الحفريات في كل من بوردو وليون وفيان وآرل وجنيف وبوزانسون وتريف وكولون وناربون ، تخبرنا على أن جاليات سورية ـ فلسطينية مزدهرة كانت مستقرة بفرنسا في بداية عصرنا هذا . وفي أحضان واحدة منها ، أى تلك التي كانت مستقرة بمدينة ليون ، ازداد الامبراطور الروماني "كارك الله" (١٨٨ ـ ٢١٧) ثم امبراطور ثان لاحقا من أصل عربي ، اسمه فيليب العربي ... (٢٠٤ ـ ٢٤٩)ـ مع العلم أن الامبراطورية الرومانية كانت تشمل آنذاك كل ما يحيط بالبحر الابيض المتوسط ـ وكان أول عاهل سمح بتظاهرة مسيحية علنية في روما بمناسبة الاحتفال بذكرى السنة الالف للمدينة ، واضعا بذلك حدا للاضطهاد الذى تعرضت له الكنيسة مدة قرنين . وحسب السيد غريغوار دى تور ، فان كنيسة باريس كانت مسيّرة من طرف كهنوت سورى الى غاية سنة ١٠٠٠ . وبالمقابل ، فان آلاف الاوروبيين الذين أقبلوا على اعتناق المسيحية كانوا يذهبون منذ ذلك الوقت الى الحج في المشرق . أما مساهمة المغرب العربي في الحضارة الرومانية المسيحية ، فانها كانت حاسمة : فالبربرى سان أوغستان ("سان أوغستان ، هذا البونيول" ، كما قال فرانسوا مورياك ، بتهكم ...) ، هو صاحب المذهب الكاثوليكي الذى أرجعه لاتينيا ، وذلك بعد نظيره في المواطنة تيرتوليان (١٥٥ ـ ٢٢٠) الذى كان أول من قام بترجمة التورات والانجيل الى اللاتينية . كما كان الجزائرى أبولي (القرن الثاني) أول مؤلف لكتاب غمارى : "الحمار

الذهبي" .

ان هذا التداخل بين الشرق والغرب لم يقع الا داخل رؤية شاملة للطبيعة . كانت هناك الامبراطورية طبعا ، لكنها لم تكن تلك الالة التي تستوعب كل شيء وتفرض النمط والشكل الواحد ، كما كانت الحالة بالنسبة للدول التي نشأت غداة النهضة . على العكس من ذلك ، فانها كانت مثلها مثل خيط مسبحة ، تخترق وتجمع بين مختلف مكوناتها ، أى مختلف الاوطان .

وأعني بكلمة الوطن : التربة التي نولد فيها والتي تتلمس فيها حواسنا الخمس ، الصورة الاصلية والدائمة للعالم ـ ويحدد سوفوكل مدى هذه الارض الهادئة والحسية بمدى صوت بلبل ـ ، وطن حميم يناسب حجمنا ... قال بيار روسي : "اننا لا نعرف حضارة واحدة من صنف رهاني أو مثقفي مجرد ، انها كلها من صنف مادى ، تولد بحكم التزاوج بين رجل وأرض ، بين وجه وطبيعة ، بنوع من المحنة الوثيقة التي تجمع بينهم في النهاية ، وتحدد الواحد منهم والاخر ، فالوطن اذن ، له طابعه القطرى والكوني ، وهو ليس بحاجة الى علَم لكي يوجد ، انه مرتبط ماديا بوجود الانسان نفسه .

ولذلك ، فان المجموعات البشرية لما كانت تهاجر خلال العصور القديمة ، فانها كانت تغادر وطنا لتعتنق وطنا آخر بشكل طبيعي ، ولم يكن يترتب عن ذلك لا "تجنيس" ولا فقدان جنسية ، فالارض واحدة ، وتراب الارض هو أيضا أرض ...

ان هذه الهجرة المتعددة الاتجاهات ، المرتفعة الى مستوى المثال الذى يقتدى به ، كانت محرك حضارتنا ، حضارة البحر الابيض المتوسط ، ولا زالت تشكل المحور الاساسي للثقافة العربية .

وعندما اختار الله ابراهيم ليكون رسولا له ، فان الشرط الذى لازم هذا الاختيار ، كان هو القطيعة مع أرضه وذويه ، الا أن هذا المنفى لم يكن سوى تمهيدا للصعود نحو وطن كوني : أرض الميعاد . ان مغادرة وطنه الاصلي كانت في النهاية ، بمثابة جعله انسانا مجردا من خلال صعود بطيء ينطلق من كون صغير ليصل الى الكون الكلي .

وحتى قبل العهد الذى يفترض فيه أنه عهد ابراهيم ، بمدة طويلة ، ظهرت في الديانات البابلية والمصرية والكنعانية ، الوظيفة الخلاقة لمثل هذه القطيعة والمنفى .

ان المسيح كذلك ، لم يغادر القرية الصغيرة ، بيت لحم ، الا ليتسلق طريق جلجوطة التي ستوصله الى قدس سمائي . والارض التي وعد بها موسى لم تكن سوى مرحلة أولى نحو مملكة سمائية تجمع بين الانسانية المختارة كلها .

وفي الاسلام أيضا ، برز نفس الموضوع كمحرك ومحور للتاريخ ، فمحمد المضطهد في وطنه (مكة) من طرف البورجوازية المحلية ، قد هاجر الى المدينة سنة

٦٢٢ ميلادية. وهذا التاريخ يشكل القطيعة المطلقة بين ماض ومستقبل: انها السنة صفر. وان تاريخ هجرة محمد هو علامة تدشين العصر الاسلامي، وهو يديم ويذكر في كل لحظة بالقطيعة والمنفى، كقاعدة للاختيار الذى تم داخل "دار الاسلام" وتحت رحمة "الاه الارض والسماوات والكونين".

ومن المعروف أن محمدا قد أكد بحرارة على انتسابه لابراهيم من خلال ابنه الاكبر اسماعيل، الوارث الشرعي للعهد الذى تلقاه الاب. وحسب التوراة، فان اسماعيل كان أول رجل تم تختينه. ولقد أنجب ابراهيم لاحقا، من زوجته الشرعية صارة، ولدا ثانيا هو اسحاق. فأرغمت صارة ابراهيم على طرد اسماعيل وأمه هاجر. وكان طرد اسماعيل من بيت أبيه، وحرمانه من الوعد، يحمل بذور اختياره كرسول، لان يهوى قال لابراهيم: "سأجعل منه أمة كبيرة". ويعيش الحجاج المسلمون كل سنة تيهان هاجر، ويكفرون عنه من خلال تحويل اسم "هاجر" بشكل رمزى الى "حج". وهكذا يتطابق الطرد والاختيار بشكل وثيق.

وبالوصول الى الشعر العربي المعاصر نفسه، نجد سمة وأحلام الهجرة فيه بارزة واضحة. هكذا، فان الجزء الاساسي من الشعر العربي المعاصر (١٨٩٠ ــ ١٩٤٠)، قد زرع وحصد بأمريكا (الولايات المتحدة، البرازيل، الارجنتين) وسط المهاجرين السوريين ــ اللبنانيين. وخلال هذا المنفى، اكتشف الشعر العربي لاول مرة مواضيع الحنين الى الارض الضائعة والى الطبيعة، وتعرف هذه الحقبة تحت اسم "المهجر".

وبامكاننا أن نتساءل اذن، لماذا تنتهي الهجرات الحالية الى المنفى، واقتلاع الجذور بشكل مأساوى؟

انني لا أريد، ولا أستطيع التطرق الى تحليل اجتماعي ــ سياسي بهذا الصدد، لان ذلك ليس من اختصاصي، وأفضل الاكتفاء بتفسير أكثر بساطة، تفسير من صنف عاطفي لا يدعي النيابة عن التحليل السالف الذكر.

أعتقد أن الدولة العصرية هي عبارة عن اطار، أو هيكل مبني على علامات وقوانين ومؤسسات، حلت في قلوب الناس محل الوطن الاصلي. فلم تعد جذور المرء تنبت في الالوان المتعددة لبيئة أو مشهد طبيعي ما، بل في مختلف "ألوان" علم وطني.

ومن الاكيد أن العالم يخضع لهيكلة، وأن الدولة تضمن حدا أدنى من الانسجام، وتحفظ الفرد من التعسف، على الاقل في البلدان الديموقراطية. الا أنها رغم ذلك، والى جانب هذه الظواهر الايجابية، قد عملت على قطع جذور الناس، وطبعت هجرتهم المحتملة بطابع التمزق والقطيعة.

ولما كتب بورج في "فيكسيون": "كنت أظن أن الانسان يمكنه أن يكون عدوا لناس، ثم لناس آخرين في وقت آخر، لكنه لا يمكنه أن يكون عدوا لبلد، أو قطرب، أو كلمات، أو حدائق، أو مجرى مياه، أو أفق".. فانه يذكرنا في الحقيقة،

كيف كانت الاوطان خلال العصور القديمة ("البدائية") متساوية القيمة، يمكن استبدال الواحد منها بالاخر.

لكن كيف يمكن لمهاجر في وقتنا الحاضر، أن يحسّ بمحنة تلقائية تجاه البلدة الاجنبية التي يستقر فيها (وهذا شرط أساسي، في نظرى، من أجل أى اندماج حقيقي) اذا ما اضطر الى تصنيفها ليس كجزء من الطبيعة الكونية، ولكن كعلم، وجمرك، وشرطة، الخ... ومما يزيد الامر استفحالا، أن تكون لهذه الدولة المستقبِلة صراعات خلال التاريخ مع الدولة الاصلية لمهاجرنا. وكما نرى، فان ذلك الحب الجسدى لبلد ما أمر مستحيل على انسان متوسط. وهكذا تخون الدولة العصرية الوطن الاصلي، وتبتر قدرة الشخص على اعتناق وطن آخر.

وبشكل مناقض، فان المهاجرين وأصحاب البلاد، يبدون لنا من هذه الزاوية، على قدم المساواة... والحل المناسب لعبادة رموز الدولة على طريقة عبادة الاوثان، والتي تقطعنا عن الرموز الطبيعية الحقيقية، يكمن في أن تتصرف الدولة بقلبها وبشيء من العاطفة تجاه مصالحها العقلانية، وأن تسمح لناس من آفاق مختلفة أن يجعلوا من عالمنا الواسع، والذى لا يشكل في نفس الوقت سوى نقطة صغيرة ضمن الكون الكلي، عالم وحدة وتنوّع، وتجذر وتبادل، داخل الحلبة اللامتناهية لرموز الخلق والابداع.

ان فرنسا، بتقاليدها كبلد مضيف، بأقدمية علاقاتها مع مختلف البلدان من مختلف القارات، وبحكم تواجد العديد من الجاليات الاجنبية الكادحة فوق ترابها، تظهر لي من بين الاماكن الاكثر أهلة لاحتضان هجرة في هذا المستوى من المجد.

سليمان زغيدور